القضايا الاجتماعية فی مرآة شعر الرصافی

حسين شمس آبادی
أستاذ مشارک بجامعة تربيت معلم بسبزوار، إيران.
اصغر مولوی نافچی
عضو هيئه التدريس بجامعة تربيت معلم بسبزوار، إيران.
غلامرضا گلچين راد
أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامية فی گرگان، إيران.
Radgolchin@gmail.com

الملخص

ولد معروف الرصافی سنة ١٨٧٥م فی مدينة بغداد وكان شاعرا، وكاتبا، وصحفيا متمتعا بمنصب كبير ومكانة اجتماعيّة مرموقة فی الدولة العثمانية. لقد شبّ الرصافی فی عصر كانت تتوالى فيه الأحداث فی العالم العربی، وقد خيّم الجهل، والفقر، والمرض على البلاد العربيّة خلال أكثر فترات الحكم العثمانی.

إن الشعر العربی قد عرف فی أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بوادر نهضته وازدهاره، واشتمل على موضوعات سياسيّة، واجتماعيّة، وحضاريّة. وإن الأدب وخاصة الشعر قادر على أن يؤثر تأثيرا إيجابيا فعّالا فی صنع التاريخ وفی تحويل مجرى الحياة وتغيير أوضاعها.

البيئة وأحوال العصر دعت الرصافی وغيره من الشعراء إلى الاهتمام بشؤون الوطن، والناس، وحرية الرأی، ونشر العلم، والقضاء على الجهل، وإخراج المرأة من ظلمتها، والاعتماد على النفس، ونشر لواء العدل، وإنصاف الطبقة البائسة، والدفاع عن الوطن، والتشجيع على العمل، والقضاء على الاستعمار والأجانب. إنها موضوعات لاكتها الألسنة، وترددت أصوات دعاتها فی كلّ مكان وقد عالجها الرصافی بكل ما أوتی من قوة حتى عرف بـ"شاعر البؤساء" و"شاعر الحريّة".

المفردات الدليلية: الأدب، معروف الرصافی، الاجتماع، الحريّة، الاستعمار، المرأة، الدين.

المقدمة

أيّهما يؤدى إلى الآخر، ويغدو عنصراً من عناصر حيويته: الشعر أم الحياة؟ إن الحياة؟ إن سؤالا كهذا لايبدو عديم الجدوى، ونحن نتحدث عن الشعر العربى فى القرن التاسع عشر والمنتصف الأول من القرن العشرين. وقد تبدو وجاهة هذا السؤال أشد حين يتعلق الأمر بالشعر العراقى أواخر ذلک القرن.

لاشک أنّ الصلة بين الحياة والشعر صلة أخذ وعطاء؛ إن الحياة الخصبة، كما يرى "روزنتال" إحدى مكوّنات الشعر: «إنّ خصب الحياة والطريقة التى نشعر بها والتى نتكلم بها جميعاً حين لا نكون واعين متعمدين، هذه الأمور هى مادة الشعر بالذات.» (روزنتال، ١٩٨٣م: ١٨)

والحياة، من جهة أخرى، لاتظل فى منأى عن هزة الشعر وتأثيره السحرى عليها؛ فللشعر لمسة مغيّرة؛ تستدرج الواقعة الحياتية إليها بحنو قاس، لتوقعها فى شبكة القصيدة وما يحمل فى ثناياها من قوى الخلق. (نفس المصدر: ٩)

كان القرن التاسع عشر، فى جزئه العراقى، خاملاً يفتقر إلى الأحداث الكبيرة والأسماء البارزة فى الشعر أو الفكر أو السياسة. وإنّ النصف الأول من القرن العشرين قد شهد مجموعة من الأسماء الشعرية المعروفة وكان من أشهرهم معروف الرصافى. لقد كان هذا الشاعر تجلياً صارخاً لضغط الحياة عليه واستجابته لها استجابة حارة عاجلة. ونحن بصدد البحث والتبيين عن القضايا الاجتماعية التى عالجها معروف الرصافى فى مرآة شعره.

سيرة معروف الرصافى (١٨٧٥-١٩٤٥م)

ولد معروف الصافى فى بغداد سنة ١٨٧٥م من أصل كردى وقيل أنه يرجع إلى العلويين، وتلقن مبادىء العلوم فى مسقط رأسه، ثمّ لزم "محمود شكرى الآلوسى"، أكثر من اثنى عشر عاماً وأخذ عنه من العلوم الشىء الكثير. ودرّس الأدب العربى ببغداد، واللغة العربية فى المدرسة الملكية العالية، والآداب العربيّة فى مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف. ثمّ انتخب نائباً فى مجلس المبعوثان العثمانى، ثمّ استدعاه أحد أصدقائه للتدريس فى دار المعلمين بالقدس. (الفاخورى، ٢٠٠٣م: ١٠١٥)

أخيرا عين فى العراق نائبا لرئيس لجنة الترجمة والتعريب فى وزارة المعارف، ثم أنتخب عضوا فى مجلس النواب العراقى. إلا أنه ما عتم أن اعتزل الناس بسبب مجافاة الحكومة له، وذلک

لأنه كان صريحا فی آرائه، جريئا فی الدفاع عنها، يريد لبلاده تقدّما سريعا ورقيّا سياسيّا، وقضی أواخر أيامه فی عزلته قانعا من الحياة بالكفاف وتوفی فی ١٦ آذار سنة ١٩۴۵م.

الحياة الأدبيّة فی أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

إن الشعر العربی قد عرف فی أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ودار نهضته وازدهاره، واشتمل علی موضوعات سياسيّه، واجتماعيّة، وحضاريّة.

إن الأدب – والشعر جزء منه – قادرعلی أنه يؤثر تأثيراً إيجابيّاً فعّالاً فی صنع التاريخ وفی تحويل مجری الحياة وتغيير أوضاعها.

وهذا ما حمل الشعراء آنذاک علی تناول القضايا العامة فی شعرهم، فجعلهم يتحدثون عن الحرية والاستقلال والعدل ونظام الحكم، وعن المجتمع وأحواله ومشكلاته، وعن شخصية الأمة وتاريخها وحضارتها ولغتها، ويشاركون فی البحث عن ذاتها وعن العناصر التی تكوّن هذه الذات وتحدد معالمها. (بقاعی، ١٩٩م: ١٧)

إن الالتزام الحقيقی، لم يظهر واضحا فی ذلک الزمن بصورة عامة لأن الأقوال بقيت منفصلة عن الأعمال. تدور فی النطاق النظری فی أكثرالأحيان وقلما تتعدّاه إلی المجلات العلمية.وقد يكون من أسباب ذلک، أن الجوار بين الشاعر وبين جمهور، لم يكن كافياً لتحقيق الالتزام وأن الشعراء كانوا يفكرون فی أكثرهم تفكيرا إلی الروح البرجوازيّة منه إلی إلتزام قضايا الشعب.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولی، تبدلت ملامح الحياة فی البلاد العربية بعض التبدّل، ولكنّ العرب لم يحققوا ما كانوا يتوقون إليه من وحدة البلاد واستقلالها، وحرية العمل علی بعث الحضارة العربيّة واستعادة العرب لشخصيّتهم ومكانتهم بين الأمم، فقد وجدوا أنفسهم فی معظم أقطارهم يرزحون تحت الحكم الأجنبی، وصار كل همهم متوجها إلی التخلص من هذا الحكم والحصول علی الاستقلال. (نفس‌المصدر: ١٨)

وزادهم بعدا عن الأهداف الكبری التی كانت تراودهم قبل الحرب العالمية الأولی، أن بلادهم أصحبت مفتتة فی فترة ما بين الحربين، مجزأة إلی دول صغيرة، بعضها خاضعة للانتداب الفرنسی، وبعضها للانتداب الإنجليزی، مما يجعل التفكير فی الوحدة القوميّة، أو فی التخطيط للبعث الحضاری، أمراً غير واقعی، أو ضرباً من الوهم وأضغاث الأحلام.

ولابد من التنبيه ههنا إلی أن التجديد الذی كان العرب ينشدونه فی فترة ما بين الحربين، سواء فی الشعر أو فی مرافق العيش المختلفة، لم يكن من إيحاء الانتداب الأجنبی أو من إبتداعه، وإنما

كان هدفاً كبيراً من أهداف الفكر العربى، ظهرت بوادره فى القرن التاسع عشر واستمر فى مطلع القرن العشرين وقوى بعد الحرب العالمية الأولى، وكان همّه أن ينقل العرب إلى المستوى العصرى الذى بلغته دول الغرب.فكل ما فعله الانتداب، أنّه سعى إلى إستغلال هذا الاتجاه، فى سبيل مصلحته، فراح يشجّعه ويقدّم له مادة من عنده، وكان هدفه من هذا التشجيع أن يقبل أبناء العربية على الثقافة الأجنبية لينهلوا من معينها فيتمّ له بذلک أمران: (نفس المصدر: ١٩)

أولهما: تحقيق التأثير الذى يريده هو من خلال ثقافته ليكون للدولة المنتدبة حضور فى حياة الشعب الواقع تحت حكمها وفى تفكيره ومستقبله.

ثانيهما: إبعاد العرب تحت ستار التجديد والتطوّر عن تراثهم الذى يعتبر محور وجودهم القومى وجوهر شخصيّتهم.

أحوال العراق الإجتماعية والإقتصادية فى أواخر القرن التاسع عشر

كان العراق لقرون خلت خاضعاً للحكم العثمانى، ولكنّ قبضة العثمانيين على هذه البلاد، لم تكن قوية ويكاد نفوذ العثمانيين أن يكون اسميا فى بعض المناطق التى تكوّنت فيها اتحادات قبيليه قويه. يعزى ضعف سيطرة العثمانيين على معظم أنحاء العراق إلى بعد وادى الرافدين عن الأستانة ورداءة المواصلات من جهة، ولشيوع النظام القبيلى الذى لاينسجم مع وجود سلطة مركزية من جهة أخرى. وقد خيم الجهل والفقر والمرض خلال أكثر فترات الحكم العثمانى، فصارت البلاد ساحة للحرب والمنازعات وما لحقها من الكوارث العظيمة، مما أدى إلى خراب الديار واندثار مؤسسات الرى التى يتوّقف عليها رفاه هذه البلاد بالدرجة الأولى. كان طبيعياً، تحت ظروف كهذه، أن تكون القبيلة هى التنظيم السياسى والاجتماعى الذى يمكن أن يعيش فى ظله الأفراد وأن يمنح هؤلاء الأفراد إخلاصهم وولاءهم لذلک التنظيم دون غيره. (فياض، ١٩٧٥م: ۴۴)

وقد اقتضت سياسة الحكومة العثمانية فى العراق أن تبقى القبائل على ما كانت عليه تشاحن وخلافات فظلت هذه القبائل تتنازع فيما بينها مرّة وأخرى مع الحكومة. وكانت الحكومة تستعين ببعض القبائل الموالية لها لضرب القبائل الثائرة.

وكان المجتمع العشائرى قائماً على نوع من العلاقات والروابط الاجتماعية التى تدور حول "وحدة الدم" أو "العصبية" التى تفرض بعض الحقوق والالتزامات المتبادلة والتى على توحيد وجهات النظر المختلفة وشدّ القبائل والعشائر فتميز بعضها عن بعض.

ولم تقم الحكومة العثمانية خلال حكمها الطويل فى العراق إلا نادرا بإصلاحات إدارية

واقتصادية من شأنها حل مشكلات القبائل المستعصية فهى لم تستطع نشر الأمن فى البلاد ولم توطن القبائل وتيسّر لها العيش عن تنظيم الرّى. كرّست الحكومة معظم جهودها لشنّ الحملات التأديبية على هذه العشائر وبالرغم من كثرة هذه الحملات وقساوتها فإنها لم تؤدّ إلى تفكك الروابط القبيليّة والقضاء على نظم القبائل وأعرافها وإنما دفعت الأفراد إلى البحث عن الطمأنينة فى تنظيمهم القبيلىّ. (نفس المصدر: ۴۷)

الوضع الثقافى فى العراق

إن الصراع الثقافى فى القرن التاسع عشر ظاهرة اجتماعية عامة فى العراق.ولكن هذا الصراع يشتدّ ويستفحل فى المدن بوجه خاص وقد ازداد شدّة فى الآونة الأخيرة، لأن المدن هى المكان الذى تظهر فيه معالم الحضارة الحديثة ومنه تنتشر إلى غيره من الأماكن الأخرى. ولهذا صار المدن تحت وطأة تيارين متناقضين:

أحدهما، يدفعهم نحو التمسک بالقيم البدوية التى ورثوها من آبائهم، والآخر يدفعهم نحو الأخذ بالقيم الحضرية التى بدأت تنتشر بينهم شيئاً فشيئاً. فإلى أىّ مدى يستطيعون أن يوفقوا بين هذين التيارين فى أنفسهم؟!

ممّا يجدر ذكره أن هذا الصراع الثقافى يتفاوت فى شدّته بين مدينة وأخرى حسب عوامل شتى، أهمها:

أولاً: مبلغ سيطرة المدّ البدوى على المدينة.

ثانياً: شدّة انعزالها عن المجتمع الخارجى.

ثالثاً: سعة أسواقها وكثرة الغرباء والمسافرين فيها.

رابعاً: مدى سيطرة الحكومة فيها. (الوردى، ۱۴۱۳ق: ۲۵۸)

الرصافى شاعر الإجتماع

البيئة وأحوال العصر دعت الرصافى وغيره من الشعراء إلى الاهتمام بشؤون الوطن والناس والموضوعات هى هى: حرية الرأى، نشر العلم والقضاء على الجهل، إخراج المرأة من ظلمتها، الاعتماد على النفس ونبذ التواكل والتخاذل، ونشر لواء العدل، وإنصاف الطبقة البائسة، والقضاء على الاستعمار والأجانب. إنها موضوعات لاكتها الألسنة وتردّدت أصوات دعاتها فى كل مكان، وقد عالجها الرصافى بكل ما أوتى من قوة حتى عرف بـ"شاعر البؤساء".

كان همّه الأوّل أن يوقظ الناس من غفلتهم فيتطلعوا إلى الوجود تطلع أحياء ويخرجوا من الجمود

إلى الحركة ومن الخمول والتشنّج إلى العمل الذى ينفع ويرفع: (الفاخورى، ۲۰۰۳م: ۵۷۴)

أرى الدهر ليلاً غير مبصرٍ وإن كان فى رأد الضُّحى من نهاره

وأهليهِ ساروا خابطين ظلامَه وإن ركبوا فى السَّير متنَ بخاره

لک الخير هل للشرق يقظة ناهضٍ فقد طال نومُ القوم بينَ ديارِه

ألم تَرَ أنَّ الغرب أصلتَ سيفه عليهم وهم لاهون تحت غراره

أما آن للسَّاهينَ أن يأبَهوا له وقد أصبحوا فى قبضةٍ من إساره

(الرصافى، ۲۰۰۶م: ۴۷۹)

الرصافى والحرية

كثر هم شعراء العراق المعاصرين وكثر أيضاً هم الذين وقفوا إلى جانب الشعب فى مختلف مراحله يشاركونه همومه وطموحاته وما ابتلى به من حكم حكام الأجانب وعراقيين وأذلوه بعسفهم وجورهم عليه إن ما أوقعه الحكام الجائرون بالشعب من مظالم على مختلف العصور تصدّى لها الكثير من المثقفين وفى الطليعة كان الشعراء قبل تأسيس الحكم الوطنى فى العهد العثمانى بزغ نجمان للعشر فى وادى الرافدين هما: الزهاوى والرصافى التصاقاً بهموم الشعب وأكثر مداومة على طرح ما يأخد بيد العراق والعراقيّين من أسباب التقدّم والتطوّر متجاوزاً كلّ من شأنه يلحق به من ضرر شخصىّ فراح يستنهض الشعب ويبث فيه العزم والإقدام لتغيير واقعه وبجرأة متناهية، أقدم ليس على كشف ما يحجب رؤى المجتمع من سجف الجهالة والتخلف بل عراها ومزّقها، علانية أمام الملأ وبصراحة متناهية، طارحاً البديل لها ومنذ أن كان العراق خاضعاً لحكم الإمبراطورية العثمانية طالب بتنحية السطان عبدالحميد وهذا موقف له لم يسبقه إليه شاعر عربىّ من قبل. استمر فى نقد الحكم وفضح الحكام بجرأته المعهو دة حتى بعد أن نال العراق استقلاله، أو ما يسمّى بالحكم الوطنى وأثناءه وحتى وفاته فى منتصف الأربعينات لم يهادن الحكام أو فساد حكمهم ووضع أصبعه على الأسباب الحقيقيّة التى تعيق نهوضه وتطوّره فالخلاص من المحتل والتحرّر من الحكم الأجنبىّ ضرورة للتقدّم والرقى لايقلّ تأثيره على واقع المجتمع العراقى وتخلفه.

اشتهر الرصافى "شاعر الحرية" بما نظمه من أشعار ثورية ملتهبة ولما عالجه من قضايا اجتماعية وسياسية وقد كان الرصافى منذ نعومة أظفاره يدافع ببسالة عن قضايا وطنه فلم يفتأ يقاوم الاستعمار ويدافع عن حرية الوطن وعدم الانخداع بأحابيل سياسة المستعمرين وأراجيفهم التى كانوا يخدعون بها الشعوب وقد دفع الرصافى الكثير من حريته الشخصية ثمناً باهضاً لمواقفه الثورية النبيلة

إزاء الحكم القائم آنذاک. (خورشا، ۱۳۸۱ش: ۹۵)

كان الرصافی يؤمن بحرية الفكر ويعتبر أنّ حقّ الإنسان بها حقّ مقدسّ وكان يعتقد بأن البلاد العربية لايمكنها أن تنهض ما لم تتوافر فيها هذه الحرية وهو يحتضن حرية الفكر قولاً وعملاً ويخلص لها أشدّ الإخلاص ولعلّ تمسّكه بها كان من أهمّ الأسباب التی جعلته مضطهداً من قبل الحاكمين. يقترن بحريّة الفكر والصدق والصراحة والجراءة والحقّ، والاستقلال فی الرأی وقوة الشخصيه وفهم الأمور على حقيقتها ونمو الرأی العام.

وفی قصيدة عنوانها "فی سبيل حرية الفكر" قال الرصافی:

كتبت لنفسی عهد تحريرها شعرا　　وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا

ومن بعد إتمامی كتابة عهدها　　جعلتُ الثريا فوق عنوانها طغرا

(الرصافی، ۲۰۰۶م: ۱۴)

فالشاعر قد بدأ بتحرير نفسه وجعل شعره يلتزم هذا التحرير مشهداً عليه الدهر مسجّلاً فی التاريخ عهداً وثيقاً، ممهوراً بأضواء الثريا ليغدوا أشدّ ما يكون وضوحاً وطبيعی أن يرافق تحرير النفس. جهر بقول الحق وبعد عن الرؤيا.

فالرصافی يدعو إلى استقلال العرب فی الرأی والعقيدة والتفكير والقول والوسائل الإعلاميّة المختلفة وفی الثقافة والتربية والتعليم والفن. لذلک يعتبر أن حرية الفكر هی أمّ الحريات وأن الأوطان لن تستقلّ فی سياستها ما لم تستقلّ فی تفكيرها.

ولعلّ من أبرز قصائده المشهورة التی أنشد حول الحرية قصيدة "الحرية فی سياسة المستعمرين"

هذه القصيدة هی من النوع الساخر الخفيف وهذا ما جعلها سهلة الفهم مقبولة لأذن المستمع، ميسورة على الذهن والفكر والوجدان يقول الشاعر مخاطباً بنی وطنه:

يا قومُ لاتتكلموا　　إن الكلامَ محرَّمُ

ناموا ولاتستيقظوا　　ما فاز إلا النُوَّمُ

وتأخروا عن كلّ ما　　يقضی بأن تتقدّموا

ودَعوا التفهّم جانباً　　فلخيرُ ألا تفهموا

وتثبّتوا فی جهلكم　　فالشرُّ أن تتعلموا

أما السياسة فاتركتوا　　أبداً وإلا تندموا

(الرصافی، ۲۰۰۶م: ۵۸۴)

یا قوم اخرسوا ولا تتکلموا فالکلام علیکم محرم وناموا لأن النائم فی هذا الزمن هو الفائز وتأخرّوا عن رکب الأمم واترکوا کلّ أسباب التقدّم واجهلوا لأنّ العلم شرّ کلّ الشرّ وأترکوا الاشتغال بالسیاسة وإلا ندمتم.

الرصافی والمرأة

إنّ الفضل فیما توصّلت إلیه المرأة العربیة والعراقیة خاصّة، من حریة وثقافة إنما یعود إلی بضعة أفراد بذلوا غایة الجهد فی هذا المضمار وعلی رأسهم "قاسم أمین" و"حافظ إبراهیم" فی مصر و"الزهاوی" و"الرصافی" فی العراق.

المرأة وتحرّرها تشغل حیزاً کبیراً فی معالجات الرصافی وهذا دلیل علی أنه لیس راضیاً عن وضع المرأة عموماً المرأة یصفها الرصافی بأنها ذلیلة وخاضعة وإنما هذا الذلّ والخضوع متأتٍ من الرجال الذکور الذین یغرقونها أکثر فی الذل والضعف:

ما أهون الأنثی لدی ذکراننا　　فلقد شجانی ذلُّها وخضوعها

ضعفت فحجتها البکاء لخصمها　　وسلاحها عند الدفاع دموعها

هی متعة المستمتعین ولیتها　　کانت لزاماً لایجوز مبیعها

فولیها عند الزواج یبیعها　　وحلیلها عند الطلاق یضیعها

وکلاهما متحکم فی أمرها　　هذا یعرّیها ذاک یجیعه

(نفس المصدر: ۴۷۸)

إذن فالمرأة ذلیة، خاضعة، لعبة فی ید الأب أو الوالی والزوج وهی بین الاثنین ضائعة لاتعرف ما تفعل.

إذن الجهل ونقص المیراث والظلم کله یلحق هذه المرأة المسکینة ورغم ذلک فهی تحبس فی البیت، تمنع من الخروج منه، تمنع من العمل، وأخذ القوت لها هذه المرأة التی جُهلت وظلمت وحُبست لا بدَّ أن تعیش البؤس والخنوع وهذه حالة مزریة ومؤلمة لکلّ إنسان یشعر بما تکابده هذه المرأة الإنسانة.

ما تصنع المرأة محبوسة　　فی بیتها إن أصبحت معدمتهْ

ضاقت بها العیشة إذ دونها　　سدّت جمیع الطرق المعلمة

عاب علیها قومها ضلةً　　أن تکسب القوت وأن تطعمهْ

فانقطعت فی العیش أسبابها وأصحبت للبؤس مستسلمهْ

فهذه حالة نسواننا وهی لعمری حالة مؤلمهْ

(الرصافی، ۲۰۰۶م: ۳۵۹)

وبعد هذا الوصف الذی یتکرّر سوء حال المرأة العربیة أو المسلمة والأمور المشترکة بینهما، یرفع الرصافی صوته منادیاً بأن وضع المرأة المسلمة لیس طبیعیاً ولا شرعیاً ولا قانونیاً أنّ الإسلام نادی بحریة المرأة، ومشارکة نضال المرأة، وتکریم المرأة تعلو صرخة الرصافی:

ما هکذا یا قوم ما هکذا یأمرنا الإسلام فی المسلمه

فهل بکم من را حم للنسا فهنّ أولی الناس بالمرحمه

(نفس المصدر: ۳۶۱)

فالرصافی یصحّح نظرة الناس المشوّهة إلی الإسلام وتعالیمه ویطالب بحقّ المرأة فی الحیاة الکریمة والخروج إلی العمل واکتساب العلم.

ولایکتفی الرصافی بهذا، بل یعرض حالة زواج المرأة الشابة بالرجال الکبار السّن لمجرّد أنهم یملکون الأموال، فیبیع الآباء بناتهم طمعاً فی الأموال:

ظلموک أیتها الفتاة بجهلهم مذ أکرهوک علی الزواج بأشیبا

طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفضول هاتیک المطامع أشعبا

(نفس المصدر: ۳۴۴)

یشرح الشاعر الزواج ومفهومه فالزواج بیت یُبنی علی الحبّ والودّ والتفاهم. الزواج بیت علی مهر قلیل وحبّ کبیر. الزواج بیت بطرفیه الرجل والمرأة اللذین یجب أن یتعارفا ویلتقیا ویتناقشا. الزواج بیت یبنی بامرأة مهذبة أدیبة متعلمة لا جاهلة:

بیت الزواج إذا بنوه مجدّداً بالمال لا بالحبّ عاد مخرّبا

إنّ الزواج محبه فإذا جری بسوی المحبة کان شیئاً متعبا

خیر النساء أقلها لخطیبها مهراً وأکثرها تحبّبا

وإذا الزواج جری بغیر تعارف وتحابب فالخیر أن تترهبّا

شرف المليحة أن تکون أدیبة وحجابها فی الناس أن تتهذبا

(نفس المصدر: ۳۴۶)

المرأة یجب أن تنهض؛ هکذا نادی الرصافی.والمجتمع یجب أن ینهض، والشرق یجب أن ینهض

وكيف ينهض الشرق، ونصف أفراده محبوسات مظلومات مفلوجات.لايقدّم الشرق ونصفه مفلوج ولايتقدم الرجل والمرأة محكومة.

من أين ينهض قائما من نصفه يشكو سقام بفالج متوصّبا
فإذا أدّعيتَ تقدّماً لرجاله جاء التأخّر فى النساء مكذبا
كيف البقاء له بغير تناسب والدهر خصّص بالبقاء الأنسبا

(نفس المصدر: ۳۴۸)

وبرأيه الأم فهى المدرسة الأولى إذا هذبتها هذبت الشعب وإن أهملتها أهمل الشعب معها وركبته الذلة والمسكنة.

فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسنا بأخلاق النساء الوالدات

(نفس المصدر: ۳۵۱)

مكافحة الإستعمار فى مرآة شعر الرصافى

لانكاد نمضى فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حتى نجد البلاد العربية، التى كانت تئن تحت وطاة الاستبداد العثمانى نحو أربعة قرون تستيقظ شيئاً فشيئاً وتعرف نفسها وتشعر بكثير من حقها وتحاول الخلاص من سيطرة العثمانيّين وحين كانت العرب تتنبّه إلى أنّ الحياة التى تعيش فيها ليست تليق بالإنسان الشريف الكريم، كان الاستعمار يسوغ سياسته العدوانية وادعى لنفسه حقّ تمدين الشعوب المستضعفة فلم تكد البلاد العربية – وعلى رأسها مصر– تتخلص من الاستبداد العثمانى حتى تصاب بالاستعمار الخارجى، فتمّ احتلال مصر إثر الثورة العرابيّة للإنجيلز الذين ساعدهم فى ذلک الحكام ثم وجد الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى فرصة لتحقيق أطماعهم المشتركة فاجتمعوا خلالها سراً واقتسموا بينهم الشام والعراق، هكذا أصبحت سوريا ولبنان فريسة لفرنسا والعراق ومصر لبريطانيا.

فبالأمس القريب كان الاستعمار الإنجليزى للعراق والذى هيمن عليه بعد ضعف الدولة العثمانية وكان للاستعمار الإنجليزى مآربه ومقاصده وأهدافه التى حدّدها وسعى لها.

ومعروف الرصافى ذلک الشاعر الكبير العربى الذى قاوم الاحتلال الإنجليزى بكلّ أوتى من قوّة. فالرصافى كان مدركاً للغة المستعمر والحرية التى يريد أن يعتنقها الناس ويؤمنوا بها فلقد استباحوا بحريتهم سفل الدماء وإشعال الفتن فى كلّ بقاع البلاد وها هى أسنانهم مازالت تقطر منها

الدماء وأظفارهم وأيديهم تحمل أشلاء الشهداء بين طياتها فهذا هو معنى الحرية عندهم ومن يعارض فمصيره معروف لأن مفهوام الحرية عند المستعمر هو إعدام حرية الغير ولقد برع الشاعر معروف الرصافى فى وصف النهج السياسى للمستعمر فى العراق بشعره "الحرية فى سياسة المستعمرين" الذى ذكرناه من قبل.

كما ينتقل الرصافى من وصف امتحل إلى وصف الحكومات العاملة تحت الاحتلال فيبرع فى وصف الحكومة السابقة والحالية تحت الاحتلال:

هذه حكومتنا وكلّ شيوخها كذب وكلّ صنيعها متكلف
وجهان فيها باطل متستر بالأجنبى وظاهر متكشف
والباطن المستور فيها تحكم والظاهر المكشوف فيه تصلف
علمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمّةٍ كلٌّ عن المعتنى الصحيح مُحرَّف
أسماء ليس لها سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرَف
هذه كراسيُّ الوزارة تحتكم كادت لفرط حيائها تتقصّف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كل بسلطته عليكم مشرف
لا بُدَّ من يوم يطول عليكمو فيه الحساب كما يطول المتوقف
الشعب فى جزع فلا تستعبدوا يوماً تثور فيه الجيوش وتزحف

(الرصافى، ٢٠٠٦م: ٦٠٢)

نعم إن الرصافى الشاعر العظيم أحسن التصوير والوصف لحال الأمّة العراقية مع وزرائها ومستعمرها فلقد دلت تلك الأبيات على وطنية وغيرة وصوت جهور لايخشى صولة الباطل فيصف الحكومة التى تعمل لحساب المستعمر وتحاول خدع الشعب لحسابهم فتشاركهم وتساعدهم على امتصاص دماء الشعب والقضاء على الوطنية الصادقة وتعيش بوجهين فهى محكومة بالسلاسل فى قبضة الأجنبىّ ذليلة أمامه يسير كيف شاء كما أنها تأخذ السلاسل لتطوق بها جيد الشعب العراقى كما تشدّ على عنقه بغلظة وشدّة فى تكبر.

لقد خاطب الرصافى بلهجته الوطنية الغيورة على العراق الوزراء العراقيين تحت حكم المحتل ويتعجّب من تصرّفاتهم باسم الحكومة والمسئولية وهم لايستطعيون التصرّف فى مرافق الدولة ومواردها ويعنفهم أشدّ التعنيف على تخاذلهم أمام الأجنبىّ المستعمر إنجليزيا كان أو أمريكيا.

كما يحيل الرصافى الوزراء العراقيين إلى الكراسى الحكومة التى يجلسون عليها حيث أن تلك

الكراسى كادت من فرط خجلها أن ينكسر تحتهم خجلاً وغليطاً من تصرّفاتهم المنافية لجميع أنواع الوطنية والمروءة الإنسانية حيث يجلس الوزير على الكرسىّ والأجنبىّ فوق الوزير ليقوده حسب رغبته.

وقد وجّه الرصافى رسالة قوية للوزراء فقال كيف تقتنعون بمجرّد الجلوس على كراسىّ الحكم وأنتم مقيدون بالأغلال إنكم إن رضيتم بهذا فإنكم تخونون أنفسكم ووطنكم بسماعدتكم للمحتل الغاصب لوطننا ولن ينسى لكم التاريخ هذا أبدا، فلابد من أن يأتى يوم تتكتل فيه القوى العراقية الغيورة على العراق.

الرصافى والعلم والجهل

يرى الرصافى أن السبب الرئيس فى تخلف الشرقيين عامة والعرب خاصّة هو انتشار الجهل فى ربوعهم لأنه عمى يفضى على البصيرة ويخنق الطموح ويحشر الناس فى بؤرة من الجمود الفكرى والتورّم الفارغ، والاكتفاء بالمذلة مقاماً والتطلع إلى الماضى واجترار بقاياه فى غير جدوى. إنه أصل كلّ علة أما العلم فهو النور الذى يهدى الفكر الذى يبدع واليد التى تصنع والعرب كانوا قلب العالم عندما كان العلم ساطعاً فى ديارهم ففى عهد بنى العباس وبنى أمية والأندلسيين كانت جامعاتهم منائر الوجود، كان علماؤهم وحكامهم قادةً للفكر الإنسانى وروحاً للحضارة العالميّة فأين هم اليوم من أجدادهم وأين حضارتهم، وأين الأدمغة التى كانت تحكم بالعلم واحترام الإنسان وروح العدل والانصاف؟ (الفاخورى، ٢٠٠٣م: ٥٧٩)

يعتقد الرصافى الفخر إنما بالعلم والفخر الحقيقى إنما يكون بالعلم وليس بأمور أخرى والوصول للعلم هو الهدف الشريف الذى يجب على المرء أن يقتحم الصعاب فى سبيل الوصول إليه. لِمَ لا أو ليس العلم الهدف الأسمى فى الحياة؟

سل بنا العم والفنون جميعاً هل ملكنا بغيرها الأقطارا

(الرصافى، ٢٠٠٦م: ١٩٥)

إذن فالسلاح علم والسلاح فن والسلاح ماضٍ وفعّال وكأنّ الرصافى قد سيطر على نفسه هاجس العلم سيطرة كاملة فهو لايدع سانحة من سوانح الكلام إلا بين مضارّ الجهل وفائدة العلم وهو يرى فى الدعوة إليه إخلاصاً للوطن وخلاصاً للشعب.

إذا ما عَقّ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا

فإنّ ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبُورا

أرى لبّ العلى أدباً وعلماً بغيرهما العلى أمست قشورا

(نفس المصدر: ۱۷۶)

وهو لذلک يريد تكثيف المادّة العلمية فی المدارس ويدعو إلى التخصّص وعدم الاكتفاء بالقليل، فبقدر ما يزداد التحصيل العلمیّ تزداد قوّة وازدهاراً وبقدر ما يكرم العلم وذووه يزداد الإقبال عليه والاستفادة من خيره وهو يضرب فی ذلک مثل الغرب وما آلت إليه حاله فی العهد الحديث وكيف استطاع بالعلم أن يمتلک الدنيا بأسرّها وأن يمدّ سلطانه على الكثرة الأرضية من القطب إلى القطب.

والرصافی الذی يطلب تعميم التعليم فی البلاد يريد فی التعليم أن يقترن العلم بالأخلاق وبالعمل لأن العلم الذی لايقترن بالعمل كالشجرة بلاثمر :

أبنوا المدراس واستقصوا بها الأملا حتى نطاول فی بنيانها زُحَلا

لا تجعلوا العلم فيها كلّ غايتكم بل علموا النشء علما ينتج العملا

هذی مدارسكم شَروی مزارعكم فأنبتوا فی ثراها ما علا وغلا

لاتتركوا الشوک ينموفی منابتها أعنی بذلكم الأهواءَ والنَحلاَ

وأسّسوها على الأعمال قائمة ممهدين إلى المحيا بها سُبلا

(نفس المصدر: ۱۶۳و۱۶۴)

ففی قصيدته "المدارس ونهجها" وبعد أن يتكلم عن العلم والذلّ والظلام، هو يدعو إلى توجيه كلّ الاهتمام إلى التعليم النظری فقط بل إلى الالتفات إلى الشؤون العلمية إلى العلوم التطبيقية ويصوّر الرصافی المدارس كأنها مزارع يجب أن ينتقی صاحبها ما يزرع من نباتات مفيدة مثمرة وإلا نبت الشوک وأكل خيرات الأرض فالعلم النظری وحده لايفيد.إذن برأيه المدرسة ليست مجرّد تعليم نظری يخرج طلاباً يعرفون القراءة والكتابة. المدرسة لها هدف أكبر وأسمى.

المدرسة لاتخرج الأساتذة فقط بل يجب تخرج العالم إلى جانب الفنان وإلى جانب المخترع وإلى جانب البطل وإلى جانب الفلاح والمتكلم.

وفی قصيدة "منزلة المعلم فی المجتمع الإنسانی" يعتقد إن كان جهالة الناس سبب لضلالهم فلا بُدَّ لهم طريق للعلى إلا التعليم، والمعلم أولّ من أمر الناس بالنهوض ويدعوهم إلى سرعة القيام به إذا ساء حياتهم ومنزلة المعلم فی البلاد كطبيبهم يداوی سقام الجهل إذن فهو يقول:

إذا كان جهل الناس مدعاة غيّهم فليس سوى التعليم للمرشد سُلم

ولو قيل من يستنهض الناس للعلا إذا ساء محياهم لقلت: المعلم

معلم أبناء البلاد طبيبهم　　يدواى سقام الجهل والجهل مسقم

وما هو إلا كوكب فى سمائهم　　به يهتدى السارى إلى المجد منهم

(نفس المصدر: ۲۰۲)

الرصافى والوطن

والرصافى على ما كان عليه من نكد الحظ وسوء الحال، لم يهاجم أبناء وطنه بل كان هجاؤه ينصب على الأجنبىّ فقد كانت روحه السمحة الأبية، ترى جفوة وطنه له، شيئاً جميلاً يقدّم له الوطن كما يتاول العاشقون أحياناً جفوة أحيائهم، فقال قولة المتصوّف: (عزالدين، لاتا: **۹۳**)

إن جفتنا أوطاننا فهى حبّ　　ومن الحبّ يستلذ الجفاء

لم نحل عن عهودها مذ جفتنا　　بل لها الود عندنا والوفاء

قد بكينا شجواً عيلها ومنها　　وعناناً سقامها والشقاء

كم أردنا سخطاً عليها ولكن　　غلب السخط فى القلوب الرضاء

إنما هذه المواطن أمٌّ　　مستحق لها علينا الولاء

إن خدمنا فلانريد جزاء　　ومن الأم هل يريد الجزاء

(الرصافى، ۲۰۰۶م: ۲۳۳)

وحبّ الإنسان، هو الذى يفرض عليه أن يغضى عن سيئات أبناء شعبه لأنه يرى نفسه قطعة من هذا الشعب فما عليه إلا أن يكون صريحاً فى قوله، جريئاً فى معالجة مشكلاته.

وقد كان شعره مثلاً واضحاً فى ذلک، وهو على الشقاء الذى حاق به لتجاهل الوطن لحقه نراه يترنم وقد دهمت الوطن المصيبة بعد ثورة ۱۹۴۱م قائلاً:

وطن عشت فيه غير سعيد　　عيش حرّ يأبى على الدهر عوجه

أتمنّى له السعادة لكن　　ليس لى فيه ناقة منتوجه

أخضب الله أرضه ولوأنى　　لست أرعى رياضه ومروجه

كلّ يوم بعزّه أتغنى　　جاعلاً ذكر عتزه أهز وجه

ما حياة الإنسان بالذل الأ　　مرّة عند حسوها ممجوجه

(الرصافى، ۲۰۰۶م: ۶۰۸)

وقد رضى الرصافى بالعيش فى وطنه، رغم إحساسه بسوء حياته ونكده فيه، لأنه يحبّ الوطن، ولايرى سوى بديلاً.

تأثر الرصافی بالنظرية الماركسية

«كل ما كتبت من نظم ونثر، لم أجعل هدفی منه منفعتی الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذی عشت فيه، والقوم الذين أنا منهم، ونشأت بينهم» بهذا القول يختصر معروف الرصافی حقيقة التزامه، ورؤيته الواضحة لرسالة الأدب فی الحياة شعراً ونثراً وإيمانه بأنّ الشعر ذو هدف اجتماعی يسمو به عن المنافع الشخصية ليصبح عاملاً من عوامل التغيير والتطوير والبناء الحضاریّ لدی الأمم وبموجب ذلک يغدو الشاعر ومسؤولاً اجتماعياً وقومياً، وتتحدّد الغاية من وجوده بالتزامه خدمة المجمتع الذی يعيش فيه والأمّة التی ينتمی إليها. (أبوحاقه، ۱۹۷۶م: ۱۹۸و۱۹۹)

ومثل هذا التنفكير لم يكن معروفاً عند شعراء العرب بهذا الوضوح قبل عهد الرصافی ولم يكن معروفاً بهذا الوضوح أيضاً عند كثير ممّن عاصروه ونرجّح أن الرصافی قد اهتدی إليه بعد أن قرأ شيئاً من الأدب الماركسی وتأثر بالنظرية الاشتراكية وفی شعره بعض الإشارت إلی معطيات ماركسية تدلّ علی أنه قد ألمّ بعض الإلمام بهذا المذهب من ذلک قوله:

يعيش الناس فی حال اجتماع فتحدث بينهم طرق انتفاع
وتكثر للتعاون والتفادی علی الأيام بينهم الدواعی
ولوساروا علی طرق انفراد لما كانوا سوی همج رعاع

(الرصافی، ۲۰۰۶م: ۲۹۳)

يريد الرصافی أن الحالة الاجتماعية أحدثت بين الناس طرقاً للانتفاع والتعاون؛ أو أن شعورهم بلزوم التعاون ألجأهم إلی أن يعيشيوا مجتمعين ينتفع بعضهم بمعاونة بعض؛ فالتعاون هو أساس الاجتماع ولو أنهم عاشوا منفردين لما كانوا إلا كسائر الحيوانات يعيشون فی بؤس وشقاء وأيضاً يقول:

وما مدنية الأقوام إلا تعاونهم علی غُرّ المساعی
ولم يصلح فسادُ الناس إلا بمالٍ من مكاسبهم مُشاع
تشاد به الملاجیء لليتامی وتمتار المطاعم للجياع

(نفس المصدر: ۲۹۵)

ففی هذه الأبيات إشارة صريحة إلی بعض تعاليم الماركسية المتعلقة بشيوع الأموال لاستخدامها فی بناء المرافق العامة وإقامة المؤسّسات الاجتماعية التی تؤمن للمحرومين عيشهم وتقدّم العون لكلّ محتاج. وتحقق ما يسمّی بالضمان الاجتماعیّ الكامل علی صعيد الدولة.

أعجب الرصافى بتعاليم الماركسية التى تدعو إلى تمجيد العمل والعمال والعطف على الكادحين وعلى الطبقات الدنيا من أبناء المجتمع لقد انتقد الماركسيون المجتمعات التى تتكوّم الثروات فى أيدى فئة معينة من الشعب بينما تعانى الفئة الأكبر الفقر المدقع وهذا يحول دون العدالة الاجتماعية.

يطرح الشاعر منذ البداية ناموساً اجتماعياً يظهر للوهلة الأولى أنه مسلمة بديهية بسيطة، لكن عند التأمّل، يبدو من أعمق الأفكار أثراً فى تغيير المجتمعات البشرية ثم يشرح الرصافى هذا الناموس بعض الشرح، ليترسّخ فى أذهان الناس بموجب علمية منطقة مقنعة فيسلموا معه بنظرية "ماركس" فى الإنتاج وعلاقته بالعمال وبالنظام الاجتماعىّ. (معروف الرصافى، نار أم كلم: ٨٩و٩٠)

الرصافى والدين

اتهم الرصافى فى دينه كما اتهم الزهاوى، ويعتقد "حنا الفاخورى" فى كتابه الجامع فى تاريخ الأدب العربى الحديث أنه ما هو بالكافر ولا المارق، وإنما هو المؤمن الذى لايرى الدين فى القشور والتعصّب والجهل. الدين فى نظره هو الإيمان النير، والعمل الخير. إنّه ينكر التزمّت والتشدد، ويتنكر للإكراه فى الدين، كما يتنكر للجمود العقلى، وذلک أن الحياة حركة وتطور، ولابُدّ للدين من مرافقة الحياة، والمساعدة على تطويرها، بالاتفاق مع العقل والعلم. والدين خير وصلاح والتعصّب ظلمة وجهل، وليس من الدين فى شىء أن تتناحر الطوائف باسم الدين، وأن يقابح الإنسان أخاه فى الإنسانيه باسم الدين الذى لايقوم إلاعلى الصلاح. قال: (الفاخورى، ٢٠٠٣م: ٤٩٠)

فيا قومنا إنّ العلوم تجدّدت　　فإن كنتم تهوونها فتجدّدوا

وخلوا جمود العقل فى أمر دينكم　　فإنَّ جمود العقل للدين مُفسدُ

ولا تقبّلوا قيداً بقولٍ مجرَّدٍ　　فما قيد الأحرار قولٌ مجرّدُ

(الرصافى، ٢٠٠٦م: ٨٤)

وقد يشتدّ قلق الشاعر، ويهزّه جمود المتشدّدين الذين يريدون الدين جامداً فى حرفيةٍ لايقبلون لها تفسيراً وفيحاول مهاجمتهم بطريقة فلسفية تنقلب إلى شىء من نكران للدّين وشرائعه، فيقول:

لو أنّ عقل المرء يغلب حبّه　　للنفس لم يلجأ إلى الأديان

لو لا جمود فى الشرائع مهلک　　لتغيرت بتغير الأزمان

(الرصافى، ٢٠٠٣م: ٢٦٠)

وهكذا ترى الشاعر أحياناً علائىّ النزعة، مع أنّه مؤمن يغار على الدين وعلى المسلمين،

كما يغار على المؤمنين من الأديان الأخرى، وهو يدعو إلى عمل الخير، والتمسک بحبل الإيمان واتباع سبل الفضيلة.

هو يرى أن الإسلام فى جوهره تقدّم، وانطلاق، وتحرّر من القيود:

يقولون فى الإسلام ظلماً بأنّه يصُدُّ ذويه عن طريق التقدّم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدّمت أوائلُه فى عهدها المتقدّم
وإن كان ذنب المسلم اليومَ جهله فماذا على الإسلام من جهل مُسلمِ
لقد أيقظ الإسلامُ للمجد والعلى بصائرَ أقوام عن المجدِ نوَّم
وأطلق أذهان الورى من قيودها فطارت فأفكار عن المجد حُوَّم
وفک إسار القوم حتى تحفزوا نهو ضاً إلى العلماء من كل مجثم
فخلوا طريقاً للبداوة مجهلاً وساروا بنهج للحضارة معلم
وقد حاكت الأفكار عند اصطرامنا تلألؤ برق العارض المتهزم
ولاحت تباشير الحقائق فانجلت بها عن نبى الدنيا شكوک التوهّم

(الرصافى، ۲۰۰۶م: ۲۶و۲۸)

نعم، الرصافى يثور ضدّ كلّ ما هو خاطىء، ضدّ كلّ الأفكار المعوجّه.الإسلام دين ودولة وحضارة مشرقة ولكنه كغيره ظلم والرصافى لايطيق الظلم. وقف الرصافى مع الدين وقفة المدافع عنه. برأيه الإسلام مظلوم فالإسلام مع التقدّم وليس ضده. فلننبش التاريخ ولنسأله عن المسلمين الأوائل. هو يعطينا الجواب الصحيح أن الإسلام صنو التقدّم وصنو الحضارة. ليس ذنب الإسلام إنما هو ذنب المسلمين ما يحدث من تأخّر. دين الإسلام دين حضارة لكن حَمَلَة الدين يسيؤون إليه.

وكان يرى أن الدين وسيلة يتوسّل بها الطامعون للوصول إلى آمالهم ومآربهم ولقد ركت هذه الوسيلة مع تقادم الزمن فأصبحت رمّة لا تحملهم فاستعاضوا عنها بأحبولة جديدة قوية هى الفكرة الوطنية، فقال :

لايخدعنک هتاف القوم للوطن فالقوم فى السر غير القوم فى العلن
أحبولة الدين ركت من تقادمها فاعتاض عنها الورى أحبولة الوطن

(الرصافى، ۲۰۰۶م: ۳۹۴)

الرصافى والبؤس والفقر

كثيراً ما عرض الرّصافى للبؤس والبؤساء، والفقر والفقراء، واليتم والإيتام، حتى لقِّب

بـ"شاعر البؤساء" قال فی حدیث له: «کانت مشاهد البؤس من أشدّ الدّواعی عندی إلی نظم الشعر» ولمشاهد البؤس هذه أوصاف عنده وأقاصیص، والأوصاف مبثوثة فی شتی قصائده، تقع علیها هنا وهناک من دیوانه، وهی أبداً واقعیة الصورة قاتمتها، ینتشر الحزن والألم فیها انتشاراً شدیداً، یحاول الشاعر أن یجعلها فی إطار مؤثر، ویبدی عندها آراءه الإصلاحیة، وانتقاده للسُّلطة الغافلة أوالظالمة؛ وأما الأقاصیص الحزینة فنجدها فی قصائده المشهورة من مثل "الیتیم فی العید" و"الفقر والسقام" و"أمّ الطفل فی مشهد حریق" وقد ظهر الشاعر فی هذه القصائد بمظهر الإنسانیة التی تحتضن الشقاء احتضاناً، وتحاول بلسمة الجراح بعاطفة خیرة، وروح کریمة حافلة بالحنان والشفقة، وقلب کبیر تملأه المحبّة لبنی الإنسان، وعینٍ سخیة تذرف الدّمع علی شقاء البشر. وکثیراً ما نراه فیها یتوجه إلی الله تعالی طالباً الرحمة للبائسین، ویتوجّه إلی الأغنیاء طالباً الشفقة ومدّ ید المعونة: (الفاخوری، ۲۰۰۳م: ۵۸۳)

أیها الأغنیاءُ کم قد ظَلَمتُم نعِمَ اللهُ حیثُ ما إن رحمتم
سهِر البائسون جوعاً ونِمتم بَهناءٍ من بعد ما قد طَعِمتم
من طعام منوَّع وشراب
کم بَذلتُم أموالکم فی الملاهی ورکبتُم بها متونَ السَّفَاهِ
وبَخِلتُم بها بحقِّ اللهِ أیها الموسرونَ بعضَ انتباهِ
أفَتَدرون أنکم فی تبابِ؟!

(الرصافی، ۲۰۰۶م: ۸۱)

والشاعر یأسی للحالة الرزیة التی وصلت إلیها بلاده، فأهمل فیها الشعب إهمالاً شنیعاً وأصبحت فیها السجونُ مقابر للأحیاء، والشوارع أخادید أصبح فیها الهواء غباراً والتراب أقذاراً، وقد انتشر الفقر والشقاء والمرض، وراح الرصافی یصف کلّ ذلک فی شعر یذوب عاطفة، وتعصف به الغیرة علی الوطن وأبنائه، کما تعصف به النقمة علی المسؤولین.

فی دیوان الرصافی عدّة قصائد قصصیة روی فیه أخبار البؤس والشقاء وأراد أن یقدّمها للضمیر الإنسانیّ نماذج من المآسی التی تتعاقب فصولها علی مسرح الحیاة العراقیة والشرقیة، ومن أشهر هذه المآسی قصّة "بشیر وأخته فاطمة" التی رواها الشاعر فی قصیدته "الفقر والسهام". وأیضاً "الأرملة المرضعة" و"المطلقة".

النتیجة

طغت موجة التجديد عند العرب فی الشعر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتجلت فی العمران، والأخلاق، والتقاليد، والعادات، والأزياء، والعلوم، والفنون، والآداب، والفكر، ونظم العيش الاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة.

استطاع معروف الرصافی فی قالة الحق من آرائه وأفكاره وحاول أن يستخدم الشعر وسيلة إلى غايات وأهداف إنسانيّة وهو من أوائل الطليعة الواعية المتحرّرة ومهّد الطريق لثورة شعريّة رائعة للذين لازموه وتتلمّذ عليه ولشعراء ما بعده كـ"نازک الملائكة" و"بدرشاكر السيّاب".

المصادر والمراجع

أبوحاقه، أحمد. ۱۹۷۶م. **الإلتزام فی الشعر العربی**. بيروت: دار العلم للملايين.

بقاعی، إيمان يوسف. ۱۹۹۴م. **معروف الرصافی نار أم كلم**. بيروت: دار الكتب العلمية.

خورشا، صادق. ۱۳۸۱ش. **مجانی الشعر الحديث ومدارسه**. طهران: مطبعة سمت.

الرصافی، معروف. ۲۰۰۶م. **الأعمال الشعرية الكاملة**. الملجدان الأول والثانی. بيروت: دارالعودة.

روزنتال، م.ل. ۱۹۸۳م. **الشعر والحياة العامة**. ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابی. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومی.

علی، مصطفی. ۲۰۰۰م. **ديوان الرصافی**. بيروت: دارالمنتظر.

الفاخوری، حنا. ۲۰۰۳م. **الجامع فی تاريخ الأدب العربی، الأدب الحديث**. بيروت: دار الجيل.

فياض، عبدالله. ۱۹۷۵م. **الثورة العراقية الكبری سنة ۱۹۲۰م**. بغداد: مطبعة دارالسلام.

نادری، اسماعيل. «معروف الرصافی محلل اجتماعی للفقر والحرمان». فصلية دراسات الأدب المعاصر، خريف ۱۳۸۹ش. العدد ۸. صص۱۱۱-۱۲۴.

الوردی، علی. ۱۴۱۳ق. **دراسة فی طبيعة المجتمع العراقی**. العراق: مطبعة الشريف الرضی.